الأمير ألفونسو حياته ودوره في الحملات العسكرية على الاندلس (1221–1248م)

الباحث الأول:
شيماء حسن علي

الباحث الثاني:
أ.د. مواهب عدنان احمد
جامعة تكريت / كلية الآداب

الملخص:

تُعَدّ دراسة الشخصيات التاريخية إحدى الركائز الأساسية في فهم تطورات التاريخ الوطني لأي كيان سياسي، إذ تسهم في الكشف عن الأدوار التي اضطلعت بها تلك الشخصيات في تشكيل السياسات العامة وتوجيه الأحداث الكبرى، فضلًا عن أن دراسة الشخصيات السياسية تساعد على تفسير الظروف التاريخية التي نشأت في إطارها قراراتها وممارساتها، وتوضح مدى تأثيرها في صياغة الوقائع وتحولات المسار التاريخي، حظي تاريخ مملكة قشتالة في القرن الثالث عشر باهتمامٍ متزايد من قبل المؤسسات الأكاديمية في العالمين العربي والغربي؛ لما لهذه المملكة من مكانة بارزة في تاريخ شبه الجزيرة الإيبيرية وأوروبا الوسيطة، وبالأخص من حيث تأثيرها في مجريات الأحداث والتحولات السياسية والعسكرية والفكرية التي شهدها الغرب الأوروبي في العصور الوسطى.

الكلمات المفتاحية: الأمير ألفونسو، نشأته، تعليمه، الحملات العسكرية.

Al Malweah
for Archaeological
and Historical Studies

Vol 13, Issue 43, Feb 2026
P-ISSN: 2413-1326
E-ISSN: 2708-602X

Prince Alfonso X and His Role in the Military Campaigns against Andalusia (1221–1248 AD)

Researcher: Shimaa Hassan Ali
Dr. Mawahib Adnan Ahmed
Tikrit University/ College of Arts

Abstract:

The study of historical figures is one of the fundamental pillars in understanding the developments of the national history of any political entity, as it contributes to revealing the roles that these figures played in shaping public policies and directing major events. The study of political figures also helps to explain the historical circumstances in which their decisions and practices arose and clarifies the extent of their influence in shaping facts and transformations of the historical course. The history of the Kingdom of Castile in the thirteenth century has received increasing attention from academic institutions in the Arab and Western worlds, due to the prominent position of this kingdom in the history of the Iberian Peninsula and medieval Europe, especially in terms of its influence on the course of events and political, military and intellectual transformations that Western Europe witnessed in the Middle Ages.

Keywords: Prince Alfonso, his upbringing, his education, his military campaigns.

المقدمة:

تُعَدّ المؤسسة الإقطاعية المتمثّلة بالطبقة النبيلة إحدى القوى الرئيسة التي أسهمت في تشكيل طبيعة نظام الحكم في مملكة قشتالة خلال القرن الثالث عشر، إلى جانب المؤسسة الكَنَسية التي اضطلعت بدورٍ سياسي واقتصادي مؤثر، فضلًا عن النظام الملكي الذي كان يقوده ملوك قشتالة، وقد قامت بين تلك القوى الثلاث علاقات وثيقة، حكمتها المصالح المشتركة وتشابك الأدوار، الأمر الذي انعكس بوضوح على بنية السلطة وآليات الحكم في المملكة.

قسم البحث إلى مقدمة وثلاثة محاور وخاتمة، تناول المحور الاول نشأة الأمير ألفونسو وسنوات طفولته ورشده خلال المدة (1221 – 1252م)، اما المحور الثاني فتناول تعليمه وتوجهاته الفكرية ،إذ عالج بيئته الأسرية وتعليمه وتوجهاته الفكرية في صباه ، و المحور الثالث مشاركته في الحملات العسكرية على الأندلس بوصفها مرحلة تمهيدية أسهمت في تشكيل شخصيته السياسية.

اعتمدنا في إعداد البحث على مجموعة متنوعة من المصادر التي اختلفت في معالجتها للموضوع منها: كتاب الملك ألفونسو العاشر الحكيم (Alfonso X el Sabio) لمانويل غونثاليث خيمينيز، أما المصدر الآخر الذي زود البحث بمعلومات مهمة فهو كتاب الملك المتعلّم: عهد ألفونسو العاشر ملك قشتالة (The Learned King: The Reign of Alfonso X of Castile) لجوزيف ف. أوكلاهان، أما المصدر الثالث كتاب تاريخ قشتالة في العصور الوسطى (Spain 1157–1300: A Partible Inheritance) لبيتر لينهان، فضلا عن بعض المصادر العربية والمعربة.

الأمير ألفونسو العاشر حياته ودوره في الحملات العسكرية على الاندلس (1221–1248م)

المحور الاول: نشأته وبيئته الأسرية:

ينحدر انفانتي Infante **(لقب يمنح لأبناء وبنات ملوك اسبانيا والبرتغال ممن لا يحملون صفة ولي عهد، ويستعمل للتمييز بين أفراد الأسرة المالكة وطبقة النبلاء، ويعد لقب انفانتي من الألقاب الشرفية الرفيعة، دون أن يدل على مركز سياسي تنفيذي. للمزيد، ينظر:** Lynch, 1992 . p. 67) الأمير الفونسو من أسرة ملكية ذات جذور عريقة تسمى بأسرة بورغندي القشتالية (Casa de Borgona Castilla) (**سلالة ملكية حكمت مملكتي قشتالة وليون بين القرنين الثاني عشر والثالث عشر، وتعد فرعًا من أسرة بورغندي الفرنسية المنحدرة من البيت الكابيتي، الأسرة الملكية الحاكمة في مملكة فرنسا. للمزيد، ينظر: ابن خلدون، (1988، ص 222)**، فرع من الأسرة الكابيتية (Capetian Dynasty) (**إحدى أعرق السلالات الملكية في أوروبا الغربية، نشأت مع تتويج هيو كابيه ملكًا على فرنسا عام 987م، مما جعلها السلالة التي أسست لملكية فرنسية مستقرة طوال القرون الوسطى، امتازت الأسرة بالاستمرارية الوراثية وتعزيز السلطة المركزية، فضلًا عن توسّع نفوذها بفروعها الرئيسة، مثل: أسرة فالوا، وأسرة بوربون. للمزيد، ينظر: (Jean,1994, PP.12 – 25)** الفرنسية ،وجمعت في النسب بين البيت الحاكم في مملكة قشتالة والبيت الحاكم في الامبراطورية الرومانية المقدسة (Holy Roman Empire) **(سياسي أوروبي تأسّس رسميًا عام 962م بتتويج أوتو الأول (Otto I) إمبراطورًا رومانيًا مقدسًا، ضمّت أراضيها معظم مناطق أوروبا الوسطى، بما في ذلك ممالك ودوقيات وأسقفيات متعددة، وكان العرش الإمبراطوري يُمنح بالانتخاب لا الوراثة، الأمر الذي منح الأمراء والأساقفة نفوذًا واسعًا داخل بنية الحكم، وتمتعت الإمبراطورية بمكانة رمزية تجاوزت سلطتها الفعلية. للمزيد، ينظر: Wilson, 2016, p. 45)** ، فوالده الملك فرناندو الثالث (Ferdinand III) **(ابن الملك ألفونسو التاسع ملك ليون، والملكة برينغيلا، وُلد عام 1201م تولى الحكم عام 1217م في السادسة عشرة من عمره، ذلك بعد أن تنازلت والدته له عن عرش قشتالة، أسس العديد من الأديرة والمؤسسات الدينية، امتاز بدوره في حروب الاسترداد ضد المسلمين في الأندلس.**

للمزيد، ينظر: (González, 2004, p. 14) ووالدته الملكة بياتريس السوابية (Beatrice of Swabia) **بياتريس السوابية (1205 – 1235م) (ابنة فليب السوابي، ملك من أسرة شتاوفن ومرشح لعرش الإمبراطورية الرومانية المقدسة، وأمها إيرين أنجيلينا ابنة الإمبراطور البيزنطي إسحاق الثاني، ولدت في أسرة ذات جذور ملكية مزدوجة بين الشرق البيزنطي والغرب اللاتيني، تزوجت من الملك فرناندو الثالث ملك قشتالة وليون عام 1219م، في إطار تحالف سياسي لتعزيز مكانة قشتالة وربطها بأسرة إمبراطورية ذات نفوذ أوروبي واسع. للمزيد، ينظر: (Martínez, 2004 pp. 40–70)** المنحدرة من سلالة هوهنشتاوفن (Hohenstaufen) **(إحدى العائلات الملكية الجرمانية العريقة في الإمبراطورية الرومانية المقدسة، والمعروفة أيضًا باسم شتاوفن، تعود أصولها إلى إقليم سوابيا في جنوب غرب ألمانيا الحالية، وظهرت قوة الأسرة خلال أوائل القرن الثاني عشر، وحكمت الإمبراطورية للمدة بين عامي (1138 – 1254). للمزيد ينظر: (Masson, 1973, p. 302)** من سوابيا، اللذان تزوجا في 30 تشرين الثاني 1219م، وقبل الزواج بعامين، أي: في عام 1217م اعتلى الملك فرناندو الثالث العرش القشتالي ، وتسنم حكم المملكة بعد تنازل والدته الملكة برينغيلا (Berengarila) **(1180 – 1246م) (أميرة قشتالية، ابنة الملك ألفونسو الثامن ملك قشتالة والملكة إليانور بلانتيجيت، تنتمي إلى أسرة بورغندي القشتالية، تزوجت برينغيلا من ألفونسو التاسع ملك ليون عام 1197م في إطار تحالف سياسي بين المملكتين، أنجبت منه عددًا من الأبناء، من أبرزهم فرناندو الثالث، الذي أصبح لاحقًا ملكًا على قشتالة ثم على ليون. للمزيد ينظر: (Suárez,1976,pp.45–49)** عن العرش لأبنها ، تشاركه والدته في الحكم، وتقدم له المشورة في الأمور السياسية، وكان لنصائحها الأثر الكبير في توجيهه ليتمكن من ادارة المملكة، إذ عرفت بحكمتها وحنكتها السياسية، مما ساعده في أن يدير دفة الحكم بجدارة، وانعكس ذلك إيجابًا على استقرار المملكة في مدة حرجة من تاريخ مملكة قشتالة في أثناء حروب الاسترداد (The Reconquista) **(هي سلسلة من الصراعات العسكرية والسياسية التي خاضتها الممالك المسيحية في شبه الجزيرة الإيبيرية ضد الكيانات الإسلامية منذ القرن الثامن للميلاد، بهدف استعادة الأراضي الخاضعة للحكم الإسلامي، واستمرت حتى سقوط مملكة غرناطة عام 1492م.للمزيد من التفاصيل، ينظر: (Collins,1989)** ، فضلًا عن تأثيرها على بعض الأحداث المهمة في حياته مثل: زواجه من الأميرة بياتريس، والإشراف على تربية أولاده وبالأخص الامير الفونسو، وكذلك زواجه من زوجه الثانية الاميرة خوانا بونتيو (Joan of Pothieu) **(1220 – 1279م) (إحدى الأميرات النبيلات من شمال مملكة فرنسا، ابنة غييّوم الثاني دي بونتيو، كونت بونتيو ومونتروي، من عائلة فرنسية ذات نفوذ، أصبحت الزوج الثانية للملك فرناندو الثالث بعد وفاة زوجه الأولى بياتريس عام 1235م، تم الزواج بين الملك فرناندو الثالث وخوانا دي بونتيو حوالي عام 1237م لأسباب ذات طابع. للمزيد، ينظر: (Parsons,1995,p.32)** ، وكان والده الملك فرناندو الثالث وريثًا لملكين عظيمين ، إذ إن جده الملك ألفونسو الثامن (Alfonso VIII) (1155 – 1214م) **(ملك قشتالة، اعتلى**

العرش عام 1158م بعد وفاة والده الملك سانشو الثالث، وكان حينها في الثالثة من عمره، فتولّى شؤون المملكة مجلس وصاية، أدّى دورًا محوريًا في تقدم مشروع الاسترداد المسيحي، ولاسيما بعد انتصاره الحاسم على القوات الإسلامية في معركة لاس نافاس (معركة العقاب) عام 1212م. للمزيد ينظر:(Pidal,1955,p.108)، ووالده الملك الفونسو التاسع (Alfonso IX) (1171 – 1230م) **(ملك ليون، تولى العرش بعد وفاة والده فرناندو الثاني عام 1188م، كانت أهم انجازاته في أثناء مدة حكمه الاهتمام بالجانب السياسي لمملكته، وسعى إلى تطويرها، وكذلك ساهم في حروب الاسترداد، توفي عام 1230م. للمزيد، ينظر:Villanova,1994,p.11)** ، فإنهما من اعظم ملوك شبه الجزيرة الايبيرية، أما والدة الأمير الفونسو قهي الملكة بياتريس زوج الملك فرناندو الثالث أبنة الملك فليب السوابي (Fhilib of Swabia) فليب السوابي (1177 – 1208م) **(أحد أمراء أسرة هوهنشتاوفن، كان من أبرز المرشحين لمنصب امبراطور الإمبراطورية الرومانية المقدسة في عام 1198م بعد وفاة الإمبراطور هنري السادس، تنازع على اللقب مع أوتو الرابع من أسرة فيلف. للمزيد، ينظر :Morissette,1922,p.42)** امبراطور الامبراطورية الرومانية المقدسة، وبالتالي فهي حفيدة فردريك الأول (Frederick Barbarossa) بابروسا، وذكر رئيس اساقفة طليطلة ومؤرخ تلك الأحداث رودريغو خيمينيز دي لادا Rodrigo Jimenez de (Lada) **(رجل دين ومؤرخ، يعد من أهم الشخصيات في العصور الوسطى في قشتالة، ولد عام 1170م، شغل منصب رئيس اساقفة توليدو للمدة بين عامي (1209 – 1247م)، يعد من أهم الشخصيات نفوذًا في الكنيسة الكاثوليكية في قشتالة، إذ عمل على تعزيز دور الكنيسة في المملكة ،وترسيخ المسيحية في المناطق التي استعيدت من المسلمين في حروب الاسترداد، قام بكتابة العديد من المؤلفات في العصور الوسطى التي تعد من المصادر التاريخية المهمة. للمزيد، ينظر: (Pick, 2004, p. 6)**، ووصفها بأنها كانت امرأة جميلة ذات شخصية قوية وحكيمة (González, 2004, p. 17).

كان زواج الملك فرناندو الثالث من الملكة بياتريس زواجًا ناجحًا ومثمرًا، اذ ولد الامير ألفونسو في مدينة طليطلة (Toledo)، واختلفت المصادر في تحديد تاريخ ولادته، بعض المصادر تذكر أنه ولد في 10 تشرين الاول عام 1221، وبعضها يوم 20 تشرين الثاني لكن الارجح أنه ولد في 23 تشرين الثاني 1221، ولم يكن هناك تخطيط مسبق لمكان ولادة الملكة بياتريس، بل حدثت ولادتها بالصدفة في اثناء السفر في احدى الحملات العسكرية، عندما خرج الملك فرناندو الثالث بحملة استكشافية الى حدود مملكة ارغون، اذ كانت تحدث هناك تمردات على حدود مملكة قشتالة، قرب المناطق الحدودية المشتركة بين المملكتين، رغبت الملكة في مرافقة الملك، فسمح لها بالذهاب معه، لكن في الطريق عبر مدينة طليطلة شعرت الملكة بياتريس بآلام الولادة، فولد هناك الامير ألفونسو، اذ عمت الفرحة في انحاء المملكة، والسبب أنه تم ضمان ولاية العهد، الذي اطلق عليه اسم ألفونسو؛ تكريمًا لجده ألفونسو التاسع آخر ملوك ليون وجده الاكبر ألفونسو الثامن الذي بقي ذكراه؛ لأنه يعد ملكًا صالحًا (Sánchez, 1944, p. 18).

وفي آذار عام 1222م بلغ الأمير الصغير أربعة أشهر من عمره، اعترف به ممثلون من جميع أنحاء مملكة قشتالة وليون كونه وليًا للعهد، أما بالنسبة إلى إخوته فكان له ستة اخوه بنين وبنات وهم: (فادريك، وفليبي، وسانشو، ومانويل، وبرينغيلا، وانريكي) (Callaghan, 1993, p. 12–18).

ومن المعروف في ذلك الوقت أنه بمجرد ولادة طفل للعائلات الملكية أو العائلات النبيلة يتم تكليف مربية مهمتها تقوم بتربيته ورعايته، ولاسيما إذا كان ذلك الطفل الابن البكر للملك وولي عهده، لذا تم التعرف على اسم المربية بمرسوم أصدره الملك فرناندو الثالث الذي منح به أوراكا بيريز (Urraca Perez) **(مربية الأمير ألفونسو العاشر، يعود نسبها إلى عائلة نبيلة من قشتالة، وكان لها دور في تعليم أبناء العائلات المالكة وأبناء النبلاء، عملت على تربية ورعاية الأمير الفونسو العاشر، وكان لها دور كبير في تعليمه وصقل مواهبه بنقلها له القيم الاجتماعية والسياسية. للمزيد، ينظر:(González, 1986, p. 578)**، مكافأة كانت منزلًا وقطعة أرض؛ تقديرًا لها لحسن تربيتها للأمير ألفونسو (González, 2004, p.18 – 19).

أمضى الأمير ألفونسو السنوات الأولى من طفولته في اللعب والمرح، فضلًا عن الدراسة، وأنه منذ طفولته بدأت تظهر عليه علامات الذكاء، وفي عام 1231م، أي: بعد عشر سنوات فقط من ولادة الأمير الفونسو تمت مكافأة أوراكا بيريز وزوجها غارسيا بمنحهم قطعة أرض في مدينة بورتيلو (Portillo)، فضلًا عن منحها وزوجها الكثير من المكافآت والامتيازات، وقد كانت علاقة الأمير ألفونسو قوية جدًا مع مربيته، إذ استمرت علاقته بها على الرغم من أنه قد تجاوز العشر سنوات من عمره، مما يعكس عمق الروابط التي نشأت بينه وبينها منذ صغره(Jiménez, p.20 – 22).

جرت العادة في قصور الملوك الأوربيين في العصور الوسطى، وفقًا للتقاليد والأعراف السائدة، أن يتم توكيل مهمة تربية وتعليم ولي العهد إلى بعض المعلمين، مما أسهم في إبعاد الأمير الفونسو عن صخب الحكم الذي كان يسود قصور الملوك، إذ نشأ في بيئة ريفية هادئة، فلم يكن من المعتاد فيها تربية أقارب الملوك، بل على العكس من ذلك، قام الملوك والنبلاء في العصور الوسطى بتربية أبنائهم على تحمل المسؤولية، يعملون على حماية صحة أبنائهم بتركهم يقضون أوقات طويلة في الطبيعة، وأنه بمجرد إخراج أطفالهم من المكان الذي ولدوا فيه يقومون بتسليم أبنائهم لمربيات وبعدها إلى معلمين يختارونهم بدقة، ويعمل هؤلاء المعلمين على تعليم الأولاد القراءة والكتابة ومختلف العلوم والمعارف، وتربيتهم وتثقيفهم ليصبحوا في المستقبل مؤهلين لتولي الحكم وإدارة شؤون المملكة، إذ يقيم أولاد الملوك والنبلاء في منازل المربين والمعلمين إقامة دائمية؛ ليكونوا قريبين منهم، وكان المعلم الذي تم اختياره للإشراف على تعليم الأمير ألفونسو هو عمدة مدينة غارسيا، الملكة برينغيلا جدة الأمير ألفونسو(Meltmann, 1988, Vol. 2, p. 365–366).

ومما لا شك فيه فإن في الأمور التي تخص العائلة الحاكمة نرى دور الملكة برينغيلا واضحًا، إذ كانت مشرفة بشكل غير مباشر على تربية وتعليم الأمير الوريث، وكانت تسعى لكي يصبح في المستقبل مؤهلًا لتحمل مسؤولية الحكم (Callaghan, 1999, p.127).

إن شخصية المعلم دون فرناندیز شخصية مثيرة للاهتمام، إذ إنه يتمتع بثقافة عالية، لذا تم اختياره ليتولى مهمة تعليم الأمير الصغير، وكانت زوجه دونا مايو ارياس (Dona Mayo Arias) تشرف على رعاية الأمير مع أولادها، وكانت حنونة على الأمير ألفونسو، وكان الأمير يقضي معظم وقته مع ابن معلمه خوان غاريسيا (Juan Garcia)، الذي كان يتشارك معه الأمير الفونسو المنزل والألعاب وكانا يقضيان معظم أوقاتهما معًا، فقد أمضى الأمير ألفونسو مع معلمه وعائلته معظم سنوات الطفولة، وكان يقوم معهم بجولات للتعرف على الصروح المعمارية المهمة في المملكة، وكذلك يتجول في ممتلكات عائلته الملكية، وقام معهم بزيارات متكررة إلى القصر الملكي وإلى الكنيسة والمحكمة، ومن أيام طفولته لا يتذكر الأمير ألفونسو إلا أحداثًا قليلة منها مرض والدته، إذ أصيبت الملكة بياتريس بمرض خطير، أقعدها في الفراش، لكنها تماثلت للشفاء فخاف عليها كثيرًا، وكانت تلك الذكريات تعد جزءًا من ذكرياته المؤلمة في أيام الطفولة؛ لأنه كان يحب والدته كثيرًا، وعلى الرغم من أنه تربى على يد مربية، إلا أنه ظل يحبها ويحن إليها، وكان يخاف أن يفقدها (González, 1986, p. 601).

وكانت تلك السنوات التي وصفها المؤرخ خوان جيل دي زامورا (Juan Gil De Zamora) (حوالي 1240 – 1320م) **(أحد أبرز علماء ومثقفي بلاط الملك ألفونسو العاشر، كان كاتبًا ورجل دين وموسوعيًا، جمع بين علم اللاهوت وبقية العلوم، وله عدة مؤلفات، وكان له دور في ترجمة العلوم والمعارف في أثناء مدة حكم الملك الفونسو العاشر. للمزيد، ينظر: (Lineman, 1993, p. 234–236)** ، بأنها سنوات الصمت، مرحلة حاسمة في تكوين الشخصية الملكية للأمير ألفونسو، فوفقًا لما أورده المؤرخ في تأبينه، ظهر الأمير منذ مرحلة مراهقته حاد الذكاء، مجتهدًا في دراسته، ولامعًا في الحفظ والذاكرة، واتسم بالتحفظ في الخطابة، والتواضع في الضحك، والصدق في نظراته، وبساطة في مشيته (García 1983, p. 205–206).

ذلك الوصف يتماشى مع الأنماط التقليدية لتنشئة أمراء العصور الوسطى في ممالك شبه الجزيرة الايبيرية، إذ كانت التربية الملكية تركز على عدة محاور رئيسة، التعليم الديني والأدبي، وفنون الحرب والفروسية، وفهم شؤون الحكم والإدارة، وكان يُتوقع من الأمير أن يظهر الفضائل الشخصية والأخلاقية مثل: الصدق، والاعتدال، واللباقة في التعامل مع النبلاء والموظفين، إلى جانب تطوير قدراته العقلية والبلاغية استعدادًا لتولي المسؤولية السياسية لاحقًا، كانت سنوات الصمت تمثل مرحلة إعداد داخلي ونفسي للأمير، إذ يُصقل وعيه الذهني والأخلاقي قبل أن يبدأ مشاركته الفعلية في شؤون الحكم(González, 2004, p. 26).

المحور الثاني: تعليمه وتوجهاته الفكرية:

توفّيت والدة الأمير ألفونسو، الملكة بياتريس، في عام 1235م، وقد ترك رحيلها أثرًا عميقًا في نفسه، إذ مثّل ذلك الحدث لحظة انتقال حاسمة شعر فيها الأمير بأن مرحلة طفولته قد انقضت، وأنه بات مطالبًا بتحمل أعباء المسؤولية المستقبلية، فقد كانت تلك المرحلة أنموذجًا للتنشئة الملكية في مملكة قشتالة، إذ يُنتظر من الوريث أن يُظهر نضجًا متسارعًا، وأن يستوعب منذ سن مبكرة ما يتصل بالواجبات المترتبة على توليه الحكم، بما في ذلك القيادة السياسية والعسكرية، والموازنة بين الأخلاق ومقتضيات السلطة (Martínez, 2010, p. 45–47).

كانت طفولة الأمير هادئة ومفعمة بالرعاية في بيت معلمه، إذ عاش بين أبناء العائلة المربية، يشاركهم الألعاب والحركة، ويقيم صداقات مبكرة شكلت جزءًا من بنيته الاجتماعية اللاحقة، وتشير المصادر إلى أن تلك السنوات لم تكن مجرد مدة إقامة، بل كانت جزءًا أساسًا من التعليم الملكي التقليدي، الذي جمع بين التربية الدينية واللغات والآداب، وأسهم في صياغة شخصية الأمير ألفونسو العلمية والثقافية فيما بعد، ويُعدُّ وجود زملاء الدراسة من أبناء النبلاء، مثل: خوان غارسيا، انعكاسًا لتقليد البلاط القشتالي الذي كان يجمع أبناء الأسر الرفيعة بالوريث الملكي؛ لضمان الولاء وبناء شبكات سياسية مستقبلية متماسكة (Herculano, 1853, p. 30).

أقام الأمير في فلادلميرو (Villaldemiro) وسيلادا (Celada) **(هما بلدتان تقعان في مقاطعة بورغوس التي تقع ضمن إقليم قشتالة وليون في الجزء الشمالي من اسبانيا الحالية، وتمتاز بموقع جغرافي يتمثل بالبيئة الريفية واعتدال المناخ، ولها أهمية تاريخية، إذ إنها تضم معالم تاريخية أهمها كنيسة سان ميغل. للمزيد، ينظر: (González, 2004, p. 28–30)** تحت إشراف معلمه، غير أن المصادر لا تحدد بدقة تاريخ مغادرته لبيت معلمه، إذ كان انتقاله إلى البلاط يتم غالبًا بشكل تدريجي، متزامنًا مع تكليفه بمهام بسيطة تزداد أهميتها مع نضجه، وفي بدايات ظهوره داخل البلاط القشتالي، بدأ بتكوين شخصيته السياسية وصقل مواهبه الفكرية، وامتاز منذ صغره بشغف ملحوظ بالمعرفة والبحث، فضلًا عن ميله الشديد للتواجد في الأماكن الطبيعية وممارسة رياضة الصيد، اذ كانت من الأنشطة التي كانت تُعد جزءًا من تربية الأمراء؛ لما تمنحه من مهارات قيادة وانضباط وتحمل (Menéndez, 1950, p. 245–248).

وعندما بلغ الأمير التاسعة عشر من عمره في عام 1241م التحق رسميًا بالبلاط الملكي، إذ خُصص له منزل مستقل وفق الأعراف السائدة، وامتدت النواة الأساسية لممتلكاته في القطاع الجنوبي من مملكة ليون، فشملت بلدات مثل: باديخوز (Badajoz) ، وسيوداد (Ciudad)، وأصبح ممثلًا للملك في شؤون ليون، وحرص الملك فرناندو الثالث على إعداد ابنه عبر تكليفه بمهام إدارية تدريجيًا، ليكتسب خبرة مباشرة في إدارة القلاع، والإشراف على الموارد، وفصل المنازعات المحلية (Martínez, 1985, p. 93–95).

شمل منهجه العلمي دراسة اللاهوت المدرسي (Scholastic Theology)، الذي كان جزءًا أساسيًا من تربية الأمراء في القرن الثالث عشر، فضلًا عن الاطلاع المبكر على مبادئ القانون الكنسي (Canon Law)، الذي كان يمثل أحد مصادر الحكم في الممالك الإيبيرية، ودراسة أولية للقانون الروماني (Roman Law)، الذي كان يشهد نهضة واسعة في الممالك الأوروبية، ويُعدّ أساسًا لفهم المبادئ القانونية والتنظيمية، وأسهمت تلك المعارف في صقل وعيه الفكري وقدرته لاحقًا على التعامل مع القضايا السياسية والإدارية للمملكة (D'Avray, 2015, p. 30–35).

و أتاحت له مشاركته التدريجية في الحياة الرسمية الاحتكاك المباشر بالكوريا الملكية (Curia Regia)، وتمثل الهيئة العليا للحكم في مملكة قشتالة، إذ كان يجتمع فيها الأساقفة وكبار النبلاء والقضاة والمستشارون، واستفاد الأمير من وجوده فيها في تعلم أساليب المداولات، وإدارة الأقسام المالية، والنظر في النزاعات، ومتابعة الأعمال الدبلوماسية، وشكّلت الكوريا بالنسبة إليه المدرسة السياسية الحقيقية التي نقلت تعليمه النظري اللاهوتي والقانوني إلى خبرة عملية متصلة بالحكم (Guerrero & Álvarez, 1972, p. 70).

ولا يمكن إغفال السياق الأسري والسياسي الذي نشأ فيه الأمير، فقد رافقت طفولته توترات داخل الأسرة المالكة، ولم يتمكن الملك فرناندو الثالث من حلها بالكامل، مع ذلك لم يُظهر الأمير ألفونسو عداءً واضحًا تجاه زوج أبيه الجديدة، إذ جاء زواج الملك فرناندو الثالث لأسباب سياسية بحتة، لتعزيز الروابط مع البلاط الفرنسي الذي كان يحكمه ابن خالته الملكة بلانكا (Blanche) **(أميرة قشتالية ابنة الملك ألفونسو الثامن ملك مملكة قشتالة والملكة اليانور ابنة هنري الثاني ملك انكلترا، وشقيقة الملكة بريغلا ملكة قشتالة، ولدت في بلنسيا عام 1188م، وتزوجت من الأمير لويس نجل الملك فليب اوغست ملك فرنسا في عام 1200م كجزء من تحالف القشتالي الفرنسي، ثم أصبحت ملكة فرنسا بعد تتويج زوجها لويس الثامن عام 1223م. للمزيد، ينظر:(Shadis, 2009, p. 105–110)** الملك لويس التاسع (Louis IX) (González, 2022, p. 102–107))، وتعامل الأمير ألفونسو مع تلك الأوضاع بقدر كبير من النضج الذي تشكّل خلال سنوات تعليمه(Martínez, 2021, 23(47), 47–49).

إن تعليم الأمير ألفونسو لم يكن مجرد مراحل متقطعة، بل كان برنامجًا متكاملًا جمع بين التربية المنزلية، والتعليم المدرسي، والتكوين الفكري الموسّع، والتدرّب العملي داخل مؤسسات الحكم، مما مهّد لتحوله لاحقًا إلى أحد أبرز ملوك مملكة قشتالة في المعرفة و التشريع.(O'Callaghan, 1993, p. 223–237).

المحور الثالث: الحملات العسكرية على الاندلس:

قام الملك فرناندو الثالث بين عامي (1230 – 1236م) بسلسلة من الحملات العسكرية المنسقة على المدن الأندلسية؛ بهدف توسيع نفوذ مملكة قشتالة وضمان السيطرة على المراكز الحضرية الرئيسة، وامتازت

تلك المرحلة بالجمع بين القوة العسكرية والتفاوض الدبلوماسي، إذ اعتمد الملك فرناندو الثالث على حصار المدن ومحاولة عقد اتفاقات مع بعض الحكام المحليين لتقليل المقاومة (Pérez, 2015, Vol. 58, p. 429–462).

وبعد وفاة الملك ألفونسو التاسع ملك مملكة ليون في 24 أيلول 1230م، انتقل حكم مملكة ليون إلى ابنه الملك فرناندو الثالث الذي كان قد استقر على عرش قشتالة منذ عام 1217م، لتبدأ بذلك مرحلة حاسمة في تاريخ المملكتين، إذ شكلت وفاة الملك ألفونسو التاسع نقطة فاصلة أنهت استقلال مملكة ليون السياسي، وتسببت بدمجها التدريجي ضمن ما يسمى بسلطة التاج، أي: تاج مملكتي قشتالة وليون، إذ عمل الملك فرناندو الثالث عقب توليه العرش على تثبيت سلطته في ليون عبر تنظيم المؤسسات المحلية واحتواء مقاومة النبلاء، مع الحفاظ في الوقت نفسه على بعض الخصوصية الإدارية لليون؛ لضمان الاستقرار، وأسهم ذلك التحول في تعزيز مركزية الحكم وتوحيد الممارسات الإدارية، ولاسيما في ظل التحديات المترتبة على حملات الاسترداد وعمليات إعادة التوطين، مما مهّد الطريق لمرحلة تتعزز فيها سلطة التاج وتتسع مظاهر الوحدة بين قشتالة وليون(González, 2004, p. 250–254).

بدأ الملك فرناندو الثالث بإحكام السيطرة على المناطق المحيطة بمدينة طليطلة في بداية عام 1231م، وذلك عبر تحالفات مع النبلاء المحليين وفرض نفوذ قشتالي تدريجي، ولاسيما على المراكز الإدارية والطرق التجارية الرئيسة، وفي 29 تموز 1236م تمكن فرناندو الثالث من السيطرة على مدينة قرطبة، إحدى أبرز المدن الأندلسية، بعد حصار قصير نسبيًا استغل فيه الانقسامات الداخلية بين الطوائف الإسلامية، وشكل سقوط قرطبة مرحلة حاسمة في استرداد الأندلس، إذ مكنت قشتالة من تثبيت وجودها في جنوب شبه الجزيرة الإيبيرية وتأمين خطوطها الاقتصادية والعسكرية، وشملت الحملات في تلك السنوات تحركات لتأمين المدن الصغيرة الحدودية، وبناء الحصون؛ لتثبيت نفوذ مملكة قشتالة(Catroga, 2010, p. 149–151).

سيطر الملك فرناندو الثالث على القسم العلوي من نهر الوادي الكبير (Guadalquivir) **(يعد أحد أهم الأنهار في شبه الجزيرة الايبيرية، يمر عبر عدة أقاليم من بينها قشتالة، ينبع من جبال كاثولا في إقليم خاين، له دور اقتصادي وحضاري مهم، وساهم في تنشيط حركة التجارة الداخلية، وكان أحد الروافد الحيوية المهمة التي تربط قشتالة بالأندلس مما جعله موقعًا استراتيجيًا. للمزيد، ينظر: García, 2004, p. 112)**، غير أنّ نفوذه ظلّ موضع نزاع من قبل بعض الزعماء المحليين في الأندلس، ولاسيما إلى الملك محمد بن الأحمر (1195 – 1273م) **(محمد بن يوسف بن نصر بن الأحمر، مؤسس مملكة غرناطة وأول ملوكها، ويلقب بمحمد الأول، استغل حالة التفكك السياسي الذي ضربت الاندلس عقب سقوط دولة الموحدين، وفي عام 1232م أعلن نفسه ملكًا على مملكة غرناطة. للمزيد، ينظر: الذهبي، 2000، ص 68–69)**، ملك مملكة غرناطة الذي أعلن استقلاله في عام 1232م، وكذلك محمد بن محفوظ أيضًا قد

أعلن استقلاله في عام 1234م، إذ كان ابن محفوظ أحد زعماء الاندلس المحليين الذين حاولوا الحفاظ على كيان سياسي مستقل في جنوب الأندلس خلال مرحلة تفكك الحكم الموحدي، وتمكّن من بسط نفوذه على مدينة نيبلا (Niebla) وإقليم الغارف (Algarve) **(إقليم يقع في أقصى جنوب البرتغال، يمتاز بموقعه الساحلي الاستراتيجي على المحيط الأطلسي، وعُرف في العصر الإسلامي باسم الغرب الأندلسي؛ لوقوعه في أقصى غرب الأندلس.للمزيد، يُنظر: (الحجي، ص113–130؛ Catroga, p. 145–148)** وسعى إلى تأمين تحالفات مع القوى الإسلامية المجاورة لمواجهة التوسع القشتالي، إلا أن محاولاته لم تكلّل بالنجاح، إذ انتهى حكمه عدما قتل في عام 1238م بأمر من الملك محمد بن الأحمر ملك غرناطة، بينما كان يستعد ابن محفوظ (**موسى بن محمد بن ناصر بن محفوظ، آخر حاكم عربي لنيبلا والغارف، تولّى الحكم عام 1234م، وتحالف مع الملك ألفونسو العاشر ضد مملكة البرتغال، قبل أن تتمكن الأخيرة من السيطرة على المنطقة سنة 1249م، وينتهي بذلك حكمه.للمزيد، يُنظر: (اللجنة العلمية في مؤسسة الإمام الصادق، 1999)** لتقديم المساعدة إلى مدينة بلنسية (Valencia) (González, 2004, p. 31).

وفي المدة نفسها كان الحاكم محمد بن هود(Muhammad ibn Hūd) **(حاكم أندلسي من أسرة بني هود، قاد ثورة ضد الموحدين عام 1228م، وبسط نفوذه على عدد من مدن الأندلس، وسعى إلى توحيد القوى الإسلامية في مواجهة الممالك المسيحية، غير أن الصراعات الداخلية أضعفت سلطته وانتهت باغتياله عام 1238. للمزيد من التفاصيل، ينظر:(عنان، 1991، ص 88–90)**، يواجه تراجعًا متسارعًا في سلطته نتيجة فشل مساعيه الدبلوماسية في إقناع الملك فرناندو الثالث برفع الحصار عن قرطبة، فقد بذل ابن هود جهودًا لإبرام هدنة، أو الوصول إلى اتفاق يمنع سقوط المدينة، إلا أن ضعف موقفه العسكري وتراجع ولاء الكثير من المدن الأندلسية له حال دون تحقيق تلك المساعي، وأسهم ذلك الفشل في تسريع انهيار نفوذه السياسي، ولاسيما أن سقوط قرطبة عام 1236م كان بمثابة ضربة قاصمة لهيبة حكمه، إذ مثّل فقدان إحدى أهم العواصم الأندلسية تحولًا جذريًا في ميزان القوى لصالح مملكة قشتالة (Derek, 1978, p.97 – 99).

ثمّ أدى ذلك الانهيار إلى اتساع حالة التفكك الداخلي في المناطق الخاضعة له، وازداد نفوذ خصومه من بني نصر في مملكة غرناطة، مما جعل سلطة ابن هود تتقلص تدريجيًا حتى أصبحت مجرد سلطة محلية محدودة، بعد أن كانت قبل سنوات قليلة تمثل أبرز قوة سياسية في الأندلس في مواجهة التقدم القشتالي (Emma, 2003, p.292 - 295).

استئناف العمليات العسكرية ومشاركة الامير ألفونسو:

بعد سنوات من التوقف نتيجة مشاكله الصحية وانشغاله بإعادة تنظيم الأراضي التي خضعت له، استأنف الملك فرناندو الثالث حملاته العسكرية على الأندلس عام 1240م، وفي العام التالي ما بين شهري شباط وآذار، استقرّ بصورة دائمية في مدينة قرطبة، إذ عمل على تنظيم أوضاعها الإدارية والاقتصادية،

وخلال الأشهر الأولى من سيطرته اندلعت مقاومة محلية في المناطق الحدودية المحيطة بالمدينة، شملت أجزاءً من منطقة الجبال وحقول قرطبة وإشبيلية، وكذلك ضفاف نهر الوادي الكبير (Manuel, P.265).

امتازت مشاركة الامير ألفونسو في الشؤون السياسية للمملكة بصورة متزايدة، ولاسيما في عام 1243م عندما تولى مسؤولية العمليات العسكرية على الحدود، حتى ذلك الحين أسفرت حملات الملك فرناندو الثالث على الأندلس عن نتائج جيدة، افسح له المجال للمشاركة كثرة المشاكل والتوترات التي حدثت داخل الاسرة الحاكمة في الأندلس، مما ادى لاحقًا الى تفكك الأسرة الموحدية(**أسرة أمازيغية أسست الدولة الموحدية التي حكمت المغرب والأندلس خلال القرنين الثاني عشر والثالث عشر للميلاد، امتازت بقوة السلطة المركزية وازدهار العلوم والعمارة، قبل أن تضعف نتيجة الانقسامات الداخلية والهزائم العسكرية أمام الممالك المسيحية في شبه الجزيرة الإيبيرية. للمزيد من التفاصيل، ينظر: (المراكشي، 1949)**، وانعكس ذلك بوضوح على ضعف السلطة المركزية (García, 2002, p. 112–115).

لكنّ الملك فرناندو الثالث تمكّن خلال تلك المرحلة من بسط نفوذه على عدد واسع من المدن والقلاع الأندلسية، سواء عبر اتفاقيات التسليم المنظَّمة أو بالترتيبات التي أقرّها الزعماء المحليون، والتي أفضت في بعض الحالات إلى قيام أنماط من الحكم الذاتي شبه المستقل تحت السيادة القشتالية، واستند الملك فرناندو الثالث في ذلك إلى سياسة مدروسة، تهدف إلى طمأنة السكان المسلمين في المناطق المستعادة، إذ منحهم ضمانات واضحة تُمكّنهم من البقاء في ديارهم، والاحتفاظ بممتلكاتهم الخاصة، وصون بُناهم الإدارية المتوارثة، فضلًا عن السماح لهم بممارسة شعائرهم الدينية ضمن إطار قانوني منظم (O'Callaghan, 1993, p. 317–318).

جاءت تلك السياسة كجزء من استراتيجية شاملة لتحقيق الاستقرار في الأراضي التي انضمت حديثًا إلى التاج القشتالي، إذ تضمن استمرار النشاط الاقتصادي، ومنع حالات النزوح الجماعي، وتقليل فرص اندلاع المقاومة المحلية، وأسهمت في توطيد العلاقات بين السلطة الملكية والسكان المسلمين، الذين شكلوا في العديد من المناطق عنصرًا إنتاجيًا مهمًا في الزراعة والحرف والتجارة، ومع مرور الوقت، أتاحت تلك السياسة للملك فرناندو الثالث بناء شبكة من التحالفات المحلية وتعزيز وجوده العسكري والإداري في المدن الكبرى وأهمها مدينة قرطبة (Calvert, 1906, p. 23).

شارك الامير ألفونسو واخوه الامير فليبي في الحملة العسكرية التي استهدفت المناطق الاستراتيجية في قرطبة؛ وذلك لاكتساب الخبرة والتجربة في وضع الخطط العسكرية وقيادة الجيوش، ولكي يكونوا مؤهلين لتولي حكم المملكة، فضلًا عن انضمامهم الى القوات الملكية التي كانت تتوغل في الاراضي المحاذية لمملكة قشتالة، لأجل توسيع النفوذ المسيحي في الاندلس، ولاسيما مساهمتهما في فرض الحصار على بعض المدن والقلاع المتاخمة للمدينة، مما أسهم في تعزيز السيطرة على تلك الاراضي التي تم الاستيلاء عليها، وعززت

تلك المشاركة من خبرتهما العسكرية والسياسية في حين أنها مهدت الطريق للأمير ألفونسو بأن تصبح لديه خبرة وتجربة كبيرة قبل تولي الحكم (González, 2004, p. 79).

وعندما بلغ الأمير ألفونسو التاسعة عشر من عمره في عام 1241م، أصبح مهيئًا لكي يمارس فعليًا مهام منصب ولي العهد، إذ أصبح يمتلك منزلًا خاصًا به، وتم تعيين النبيل دون نونو غونزالس دي لارا (Don Nuno Gonzalez De Lara) **(من كبار نبلاء قشتالة وأعضاء المجلس الملكي، عمل مستشارًا سياسيًا للأمير ألفونسو في المدة بين 1231–1275م، وكان له دور مهم في دعم الملك ألفونسو العاشر عند توليه العرش بعد وفاة الملك فرناندو الثالث، وكان له تأثير كبير في شؤون البلاط الملكي والسياسة الداخلية.للمزيد من التفاصيل، ينظر: (Sánchez, 2004, p.631–644)** ليكون مستشاره الخاص لمساعدته في الامور السياسية والادارية كافة ، فضلًا عن منحه مجموعة من الاراضي تقع في المنطقة الشمالية الوسطى لمملكة ليون في اقليم سالمانكا، في حين منحه والده صلاحيات واسعة منها: رئاسة مجلس ليون، وادارة الاقاليم الاقطاعية في المدينة (Sánchez, 2004, p. 631–644).

ولم تكن مشاركة الأمير ألفونسو في إدارة شؤون المملكة بشكل مباشر، بل كانت هناك لجنة مكونة من مجموعة من النبلاء والمستشارين وقادة الجيش، تتولى مهمة التدقيق في الامور التي تخص حفظ الامن والاستقرار في المملكة وتعرض تقاريرها على الملك فرناندو الثالث، ومن ثم يصدر الملك الأوامر النهائية لتنفيذها، وعلى ذلك الأساس طلب الملك فرناندو الثالث من ابنه الأمير ألفونسو الأخذ بمشورة النبلاء والمستشارين، والتزم الأمير بتوجيهات والده، وتولى أيضًا الإشراف على القوات العسكرية المتمركزة في المناطق الحدودية بين مملكة قشتالة والأندلس، فضلًا عن إشرافه على القلاع العسكرية المنتشرة في تلك المناطق الحدودية(O’Callaghan, 1993, p. 318–320).

امتازت مشاركة الأمير ألفونسو في شؤون المملكة السياسية والعسكرية بوضوح متزايد ابتداءً من عام 1243م، حينما أُسندت إليه مهمة الإشراف على العمليات العسكرية في مناطق الحدود الجنوبية، وجاءت تلك الخطوة في ظلّ التقدّم الذي حققته حملات الملك فرناندو الثالث في الأندلس، ساهمت تلك المشاركة في تعزيز دور الأمير ألفونسو، ولاسيما مع تفاقم الأزمات الداخلية التي كانت تشهدها الأندلس آنذاك، فالدولة الموحدية التي شكّلت آخر سلطة مركزية كبرى في المنطقة، دخلت في سلسلة من الصراعات والانقسامات بشأن الخلافة، مما أدى تدريجيًا إلى تفكك بنيتها السياسية والعسكرية، وكانت نتيجة ذلك ظهور كيانات محلية شبه مستقلة في عدد من المدن، الأمر الذي سهّل على مملكة قشتالة عقد اتفاقيات ولاء مشروط معها، ومكّن الأمير ألفونسو من توسيع مشاركته في إدارة سياسة التقدم جنوبًا، سواء عبر التفاوض السياسي أو بالعمليات العسكرية المصاحبة لتلك المرحلة(O’Callaghan, 1993, p. 321).

الحملة الأولى على مرسيه:

كان الأمير الفونسو في بداية عام 1243م يستعد لغزو حدود مملكة غرناطة، إلا أن ملك مرسيه محمد ابن هود، أرسل مبعوثًا إلى الملك فرناندو الثالث، عارضًا عليه شروط الاستسلام والولاء للتاج القشتالي، فضلًا عن تسليمه مدينة مرسيه وما يتبعها من قلاع وحصون، وكان الهدف من تلك المفاوضات الحصول على الدعم من ملك قشتالة لمواجهة خصومه، إذ كان يسعى الى تحقيق مكاسب سياسية على حساب خصومه، وأن فرسان وسام سانتياغو (Order of Santiago) **(هم فرسان تابعون لنظام ديني عسكري تأسس عام 1170م في مملكة ليون، يلتزمون بتعاليم الكنيسة، ويؤدون مهام حماية الحجاج إلى مزار القديس يعقوب في سنتياغو، ويشاركون مع الجيش القشتالي في حروب الاسترداد ضد المسلمين. للمزيد، يُنظر: (O'Callaghan, 1993, pp. 3–15)**، كانوا متواجدين منذ عام 1241م في الجزء الجنوبي من مملكة ليون، مما يشير الى انخراطهم في النزاعات الداخلية بين الزعماء المسلمين، إذ كانت العلاقة بين الطرفين يشوبها التوتر، الأمر الذي دفع ابن هود إلى إعادة النظر في تحالفاته (**Catlos, 2014, p. 122–125**).

انطلق الأمير الفونسو بحملة عسكرية كبيرة على مدينة مرسيه في بداية شهر نيسان عام 1243م، وتمكن من السيطرة على العديد من القلاع والحصون، وساهم في ترسيخ الوجود القشتالي، وخلال تلك الحملة سعى الامير ألفونسو الى عقد اتفاقيات مع زعماء المسلمين، وكان من أبرزها معاهدة الكاراز الأولى (Pact of Alcaraz) **(معاهدة عقدت بين الملك فرناندو الثالث ومحمد بن هود، حاكم مملكة مرسيه في شهر نيسان من عام 1243م بمدينة الكاراز الواقعة شرق اسبانيا الحالية. للمزيد، ينظر: (Joseph, p.9 12 –)** عام 1243م، الذي نظم شروط استسلام بعض القلاع والمناطق لتكون تحت السيطرة القشتالية، مع منح بعض الامتيازات للسكان المحليين، وعلى الرغم من تفوق القوات القشتالية في العمليات العسكرية، إلا أن عملية السيطرة على مملكة مرسيه واجهت تحديات كبيرة، ولاسيما في المناطق الشمالية والوسطى، إذ كان السكان المحليون ينضمون حملات مقاومة عنيفة ضد القوات القشتالية، وبموجب تنفيذ أحكام معاهدة الكاراز تمكن الأمير ألفونسو من فرض سيطرة القوات العسكرية تدريجيًا على المملكة، لكن تلك العملية لم تكن سهلة، إذ شهدت عدة اضطرابات في أماكن كثيرة ولاسيما في الأجزاء الشمالية، لذا طلب الأمير ألفونسو من والده إرسال تعزيزات إضافية؛ لكي يتمكن من تأمين المناطق التي استطاع السيطرة عليها، وكذلك لمنع حدوث تمردات جديدة، وأصبحت القلاع الصغيرة المنتشرة في أرجاء المملكة تمثل عائقًا أمام التوسع القشتالي، إذ كانت تشكل بؤرة مقاومة للحكم الجديد، وعلى الرغم من ذلك فإن الامير ألفونسو نجح في كشف معظم تلك البؤر الثورية، الأمر الذي ساعده في تعزيز سلطته في المنطقة وأثبت مكانته كحاكم فعلي للمنطقة.

وكان الهدف الأساس من رحلة الأمير ألفونسو نحو مملكة مرسيه في آذار عام 1244م إتمام توقيع معاهدة ترسيم الحدود بين مملكة قشتالة وارغون، والتقى الأمير ألفونسو هناك بعدد من الشخصيات المهمة

من بينهم فرسان من مملكة أرغون، فضلًا عن مجموعة من نبلاء مملكة قشتالة، وحضر الملك جيمس الأول (James I) **(ملك أراغون ولد عام 1208م، تولى العرش عام 1213م، امتاز عهده بتوسيع أراضي تاج أراغون ليشمل جزر البليار وبلنسية، بعد حملات ناجحة ضد حكم المسلمين، اشتهر بإصلاحاته القانونية مثل: قوانين بلنسية، وبنشاطه الدبلوماسي المكثّف داخل شبه الجزيرة الإيبيرية وخارجها. للمزيد، ينظر:(Hillgarth, 1976, Vol. I, p.45 – 49)**، ملك أرغون شخصيًا الى الاجتماع الذي عقد في 26 آذار 1244م، للتوصل الى اتفاق نهائي، وتم الاتفاق على عدة بنود من أهمها: تحديد الحدود الجغرافية والسياسية بين الطرفين، والاعتراف بسلطة ملك ارغون على بعض الأراضي، في حين احتفظت مملكة قشتالة بسيطرتها على بيار (Biar) إلى أن يتم الفصل النهائي في مصير تلك المناطق (**González, 2004, p. 46**).

دخل الامير ألفونسو مدينة مرسيه في 15 نيسان عام 1244م، وقام بمنح مجموعة من الامتيازات لقادة القلاع والبلدات التي أعلنت ولاءها له، كانت تلك القلاع تابعة لمملكة بلنسية، الأمر الذي تسبب في حدوث نزاع على ملكيتها، إلا أن تلك القضية لم تحل بالسيطرة على مدينة مرسيه، واستمرت بعض الخلافات الحدودية بين المملكتين، انتهت المرحلة الأولى من الحملة، بدأت المرحلة الثانية في عام 1245م عندما تولى الأمير ألفونسو قيادة حملة عسكرية كبيرة هدفها فرض السيطرة على مدينة قرطاجة، التي لم تكن تتمتع بأهمية استراتيجية كبيرة في ذلك الوقت، ومع ذلك فإن السيطرة عليها تعد خطوة ايجابية لفرض نفوذ مملكة قشتالة على بقية المدن التابعة لحدودها، أمر الملك فرناندو الثالث الأمير ألفونسو بعقد اتفاقات مع بعض القوى المحلية في قرطاجة، مما ساعد في تعزيز سيطرة المملكة على المدن التي سيطرت عليها، وضمن سياسة الملك فرناندو الثالث لإحكام السيطرة على مملكة مرسيه قام بمنح امتيازات لمدينة قرطاجة، وتم اتخاذ قرارات أخرى تخص الإدارة الكنسية للمدينة، إذ تم تعيين أسقف جديد لها (Murcia, p.10– 12).

الحملة على اشبيلية:

في صيف عام 1246م عاد الأمير الفونسو لتولي مسؤوليته داخل المملكة في غياب والده، الأمر الذي كان متوقعًا أن يستمر لمدة طويلة نظرًا لخطط الملك فرناندو الثالث لغزو إشبيلية، بدأ الملك فرناندو الثالث حصاره لمدينة اشبيلية في منتصف شهر آب عام 1247م، التي كانت في حينها واحدة من أهم المدن الإسلامية في الأندلس، جاء ذلك الحصار في اطار حملاته العسكرية لاستكمال السيطرة على الأندلس ضمن حروب الاسترداد، وبعد سقوط قرطاجة وجيان في عام 1245م بيد القوات القشتالية، وقبل البدء بفرض الحصار الكامل على اشبيلية، قام الملك فرناندو الثالث بإرسال وحدات عسكرية استكشافية للمناطق المحيطة بالمدينة لاكتشاف دفاعاتها، في حين شن ملك البرتغال ألفونسو الثالث (Alfonso III) (1210 – 1279م)، **(ملك البرتغال، ويُعدّ خامس ملوك البرتغال من أسرة بورغندي، تولّى الحكم عام 1248م بعد تنازل شقيقه**

الملك سانشو الثاني عن العرش، وذلك إثر تدخل البابوية التي أيّدت عزله بسبب النزاعات الداخلية وضعف سلطته. للمزيد، ينظر: (Marques, 1972, Vol. I, p.168 – 172)، هجومًا منفصلًا ضد القوات الإسلامية في اشبيلية، وقد تولى الملك فرناندو الثالث مسؤولية التخطيط الاستراتيجي لمراحل الحصار بمشاركة ولده الأمير الفونسو، وبحلول ربيع عام 1247م اكتملت الاستعدادات العسكرية، إذ حشد الملك فرناندو الثالث قواته لمحاصرة مدينة إشبيلية بشكل كامل، واستند القشتاليون إلى تجاربهم السابقة في كيفية التطويق والاستيلاء على المدن الاندلسية الأخرى مثل: قرطبة ومرسيه وقرطاجة، فضلًا عن اعتمادهم على أساليب مختلفة في حصار المدينة من اهمها: عزل المدينة اقتصاديًا، ومنع وصول اي إمدادات الى داخل المدينة (Hillgarth, 1976, p. 45–49).

وسيطرت القوات القشتالية على المناطق المجاورة للمدينة، في حين تحركت كتيبة أخرى من القوات بمحاذاة نهر الوادي الكبير لغرض محاصرة اشبيلية من جميع الاتجاهات، كان الهدف التضييق على المدينة واجبار سكانها على الاستسلام دون خوض مواجهات ومعارك، اضطر حاكم المدينة إدريس بن مأمون(Idris ibn al-Maʾmun) (1186–1242م) **(حاكم موحدي حكم المغرب والأندلس بين عامي 1227–1232م، وسعى إلى تثبيت سلطته في مراكش بالتحالف مع بعض القوى المسيحية. للمزيد من التفاصيل، ينظر: (المراكشي، 1949، ص 285)** إلى تسليمها لصالح ملك غرناطة، الذي كان قد أبرم تحالفًا مع مملكة قشتالة، وفي مرحلة أخرى من مراحل حصار اشبيلية انشأ الملك فرناندو الثالث أسطولًا بحريًا منظمًا، تم اعداده للانطلاق من ميناء كانتابريا (Cantatrice) **(يعد أحد اهم الموانئ في مملكة قشتالة، وكان للميناء دور حيوي في التجارة البحرية في العصور الوسطى، وكانت له أهمية استراتيجية في الحروب والحملات العسكرية من خلال حركة القوات البحرية في مملكة قشتالة. للمزيد، ينظر:(Richard, 1995, p.320)**؛ ليمنع أي محاولة إمداد تأتي إلى اشبيلية لاسيما من جهة الجنوب؛ لأن الميناء يقع عند مصب نهر الوادي الكبير، وفي الوقت نفسه تمركزت قوات الجيش القشتالي عند المداخل الرئيسة للمدينة، ولاسيما عند البوابة، إذ شهدت تلك المنطقة معارك قوية بين الطرفين في أثناء محاولات الجيش القشتالي اقتحام الأسوار، فأمر الملك فرناندو الثالث بقطع الجسور التي كانت تربط مدينة اشبيلية بضواحيها؛ لمنع أي محاولة للهروب أو طلب المساعدة من القوات الإسلامية المتواجدة في الأندلس (Martínez, 2003, p. 52).

بدأت الأوضاع داخل مدينة إشبيلية تتدهور سريعًا خلال الحصار الذي فرضه الملك فرناندو الثالث، إذ عمّت المدينة أزمة شديدة من نقص المؤن والإمدادات، مما أدى إلى تراجع الروح المعنوية في صفوف السكان والمقاتلين، واستمر الحصار نحو (16) شهرًا، واستند الحصار إلى خطط مدروسة من قبل القشتاليين، تهدف إلى إرهاق المدينة وإجبار سكانها على الاستسلام وذلك بالضغط الاقتصادي والعسكري، وفي تموز عام 1248م تفاقمت معاناة الاهالي بسبب المجاعة التي اجتاحت المدينة، مما دفع بعض الوفود الإسلامية

إلى التفاوض مع الملك فرناندو الثالث، لكنه رفض الشروط الجزئية، وأصر على استسلام كامل للمدينة، دون شروط تحفظ جزئيًا السيادة الإسلامية (Torres, 1973, p. 15).

أعلنت إشبيلية في 23 تشرين الثاني 1248م استسلامها رسميًا أمام قوات الملك فرناندو الثالث، وطلب من السكان المغادرين أن يتركوا المدينة مع السماح لهم بأخذ ممتلكاتهم، وبعد ذلك الاستسلام، دخل الملك فرناندو الثالث المدينة يوم 22 تشرين الثاني 1248م في موكب رسمي، وبدأ بإعادة تنظيم المدينة وفق الحكم المسيحي، الجامع الكبير تم تحويله إلى كاتدرائية، مما مثل رمزًا لانتقال السلطة الدينية والسياسية في المدينة، شكّلت السيطرة على مدينة إشبيلية نقطة تحول استراتيجية مهمة؛ لأن المدينة كانت ذات قيمة كبيرة اقتصاديًا وعسكريًا، واستيلاء القشتاليين عليها منحهم قوة كبيرة على الممرات التجارية في جنوب شبه الجزيرة الإيبيرية، مما مهد الطريق لاحقًا لاستكمال حملات الاسترداد في الأندلس (O'Callaghan, 1993, p. 9–12).

الخاتمة :

1. إن مدة ولاية العهد للأمير ألفونسو كانت بمثابة صقل لمهاراته القيادية، اذ انتقل من مرحلة المشاهدة إلى القيادة الفعلية للجيوش في سن مبكرة، مما جعله مهيئًا تمامًا لإدارة شؤون الحرب بعد توليه العرش.
2. برز دور الأمير بشكل جلي في منطقة "**مرسية**" (1243م)، اذ استطاع بمعاهدة "**ألكاراز**" ضم مساحات شاسعة من الأندلس عبر التفاوض (نيابة عن والده) المدعوم بالقوة العسكرية، مما وفر على القوات القشتالية استنزافًا بشريًا وماديًا كبيرًا.
3. قدرة الأمير العالية في التنسيق مع الأوامر العسكرية مثل: (فرسان سانتياغو وكالاترافا)، اذ نجح في توظيف تلك القوى الضاربة لتأمين المناطق الحدودية المفتوحة وضمان استقرارها بعد الانسحاب العسكري المباشر.
4. مثّل الأمير ألفونسو الركيزة الأساسية لوالده في حصار إشبيلية، اذ تولى مسؤولية قيادة العمليات في قطاعات حيوية، وأشرف على قطع خطوط الإمداد عن المدينة، مما عجل بسقوط حواضر الوادي الكبير.
5. لم يقتصر دور الأمير ألفونسو على الجانب الهجومي، بل وأيضا وضع اللمسات الأولى لسياسة "**إعادة الاستيطان**" في المناطق التي سيطر عليها، مما حول الانتصارات العسكرية العابرة إلى سيطرة جغرافية دائمة.
6. ظهر اهتمام الأمير المبكر بأهمية سلاح البحرية خلال حملات الأندلس، ولاسيما في حصار مدينة إشبيلية، اذ أدرك أن حسم المعارك في الجنوب يتطلب سيطرة على الممرات المائية، وهو التوجه الذي توسع فيه لاحقًا في عهده.

قائمة المصادر والمراجع :

أولًا: المصادر العربية

1. ابن خلدون، (1988). كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر. تحقيق: خليل شحادة. ج 5. لبنان: دار الفكر.
2. الذهبي، ش. م. ب. أ. (2000). سير أعلام النبلاء. ط 2. ج 16. بيروت: دار الكتب العلمية.
3. الحجي، (د.ت). الوجود الإسلامي في غرب البرتغال.
4. اللجنة العلمية في مؤسسة الإمام الصادق. (1999). موسوعة طبقات الفقهاء. (المجلد 8). دار الأضواء للطباعة والنشر.
5. المراكشي، عبد الواحد. (1949). المعجب في تلخيص أخبار المغرب. تحقيق: عبد الله عنان. القاهرة: دار الكتب المصرية.
6. عنان، محمد عبد الله. (1991). تاريخ دولة الإسلام في الأندلس: عصر المرابطين والموحدين. القاهرة: مكتبة الخانجي.

ثانيًا: المصادر الأجنبية

1. Lynch, J. (1992). The Hispanic World in Crisis and Change, 1598–1700. Oxford, UK: Blackwell.
2. Valdeón Baruque, J. (2001). Los reyes de Castilla: Dinastía de Borgoña. Madrid, Spain: Espasa-Calpe.
3. Jean – François Lemarignier, (1994). Les Capétiens, Histoire d'une Dynastie. Paris, France: Presses Universitaires de France.
4. Wilson, P. H. (2016). The Holy Roman Empire: A thousand years of Europe's history. London, UK: Penguin Books.
5. González Jiménez, M. (2004). Alfonso X el Sabio (1st ed.). Barcelona, Spain: Impreso en España.
6. Álvarez Martínez, F. (2004). Reinas de Castilla: Doña Beatriz de Suabia. Madrid, Spain: Ediciones Palabra.
7. Masson, G. (1973). A Life of Frederick II of Hohenstaufen. New York, NY: Atheneum.
8. Suárez Fernández, L. (1976). Fernando III el Santo. Madrid, Spain: Ediciones Rialp.
9. Collins, R. (1989). The Arab Conquest of Spain. Oxford: Blackwell Publishing.
10. Parsons, J. C. (1995). Eleanor of Castile: Queen and Society in Thirteenth Century England. New York, NY: Palgrave Macmillan.
11. Menéndez Pidal, R. (1955). General events of Spain commissioned by Alfonso the Wise and continued under the reign of Sancho IV in 1289. Madrid, Spain: Gredos.
12. Morissette, C. D. (1922). Obispo de Burgos. Madrid, Spain.
13. Pick, L. K. (2004). Archbishop Rodrigo and the Muslims and Jews of Medieval Spain. Ann Arbor, MI: University of Michigan Press.
14. González, J. (1986). El reino y los diplomas de Alfonso X. Córdoba, Spain.
15. Lineman, P. (1993). History and the Historians of Medieval Spain. Oxford, UK: Clarendon Press.
16. García Gallo, R. (1983). El pensamiento jurídico y político de Alfonso X el Sabio. Editorial Revista de Occidente.
17. Martínez, H. S. (2010). Alfonso X, the Learned: A Biography. Brill.
18. Herculano, A. (1853). História de Portugal: Desde o começo da monarquia até o fim do reinado de Afonso III. Typographia de José Baptista Morando.
19. García de Cortázar, G. A. (2004). Atlas histórico de España. Editorial Planeta.
20. O'Callaghan, J. F. (1993). A History of Medieval Spain. Ithaca: Cornell University Press.
21. O'Callaghan, J. F. (1993). The Learned King: The Reign of Alfonso X of Castile. Philadelphia, PA: University of Pennsylvania Press.

22. Meltmann, W. (1988). Clásicos Castalia (Vol. 2). Madrid, Spain: Castalia.
23. Martínez Díez, G. (1985). Leyes de Alfonso X. Fundación Sánchez-Albornoz.
24. D'Avray, D. L. (2015). Papacy, Monarchy and Marriage, 860–1600. Cambridge University Press.
25. Guerrero Lafuente, M. D., & Álvarez Castillo, M. A. (1972). Documentación Medieval sobre el Monasterio de Santa Eufemia de Cozuelos.
26. Shadis, M. (2009). Berenguela of Castile (1180–1246) and Political Women in the High Middle Ages. Palgrave Macmillan.
27. Martínez Llorente, F. (2021). De curia a cortes bajo el reinado de Fernando III de Castilla y León (1217–1252): El Ordenamiento de Sevilla de 1250. Araucaria, 23(47).
28. Pérez Rodríguez, F. J. (2015). The Kingdom of Galicia and the Monarchy of Castile-León in the Twelfth and Thirteenth Centuries. In Culture and Society in Medieval Galicia (Vol. 58), The Medieval and Early Modern Iberian World).
29. Catroga, F., et al. (2010). História de Portugal: A Formação do Território. Editorial Presença.
30. Calvert, A. F. (1906). The History of Castile. London: John Lane.
31. Richard, J. (1995). Saint Louis: Crusader King of France. Cambridge: Cambridge University Press.
32. Hillgarth, J. N. (1976). The Spanish Kingdoms, 1250–1516: Precarious Balance (Vol. 1). Oxford: Clarendon Press.
33. De Oliveira Marques, A. H. (1972). Very Short History of Portugal. New York: Columbia University Press, Vol. I.
34. Emma Falque Rey (ed.). (2003). Lucae Tudensis Chronicon Mundi. Turnhout, Brepols.
35. Catlos, B. A. (2014). Muslims of Medieval Latin Christendom, c. 1050–1614. Cambridge: Cambridge University Press.
36. Sánchez de Mora, A. (2004). Nuño González de Lara: "El más poderoso omne que señor oviese et más honrado de España". Historia, Instituciones, Documentos, 31.
37. Torres Fontes, J. (1973). Privilegios de Alfonso X el Sabio al Reino de Murcia. Murcia: Academia Alfonso X el Sabio.

List of sources and references:

First: Arabic sources

1. Ibn Khaldun, (1988). The Book of Lessons and the Diwan of the Beginning and the News. Investigation: Khalil Shehadeh. Part 5. Lebanon: Dar Al-Fikr**.**
2. Al-Dhahabi, Sh. M. for. A. (2000). Biographies of noble figures. 2nd edition, Part 16. Beirut: Dar Al-Kutub Al-Ilmiyyah**.**
3. Al-Hajji, (d. T.). The Islamic presence in western Portugal**.**
4. The Scientific Committee of the Imam al-Sadiq Foundation. (1999). Encyclopedia of classes of jurists. (Vol. 8). Dar Al Adwaa for Printing and Publishing**.**
5. Marrakshi, Abdel Wahed. (1949). Fan of summarizing Moroccan news. Investigation: Abdullah Anan. Cairo: Egyptian Book House**.**
7. Anan, Muhammad Abdullah. (1991). History of the Islamic state in Andalusia: the era of the Almoravids and Almohads. Cairo: Al-Khanji Library.

Vol 13, Issue 43, Feb 2026
P-ISSN: 2413-1326
E-ISSN: 2708-602X